فى ميـــــدان الاجتهاد

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

أستاذ الأدب العربى بكلية اللغة العربية بالأزهر

— ١ —

كيف منع الاجتهاد

ينشد المسلمون الاصلاح فى هذا العصر ، وتنشده جامعتهم الأزهرية الكبرى فى مصر ، ويعالجون فى سبيل ذلك طرقاً ملتوية يمشون فيها إلى أن تنتهى بهم إلى أسوأ مما كانوا فيه ، فتعلو كلمة الجامدين بالرجوع إلى قديمهم المعقوت ، ويوافقهم على ذلك بعض من يتظاهر بحب الاصلاح إذا أقبل عهده ، ويخفى فى قلبه كرهه وبغضه . ولو أنعم هؤلاء الناس النظر لرأوا الذنب فى ذلك يرجع إلى تلك الطرق الملتوية ، لا إلى الاصلاح المنشود الذى دعا إليه جمال الدين الأفغانى والأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وغيرهما من كبار المصلحين فى هذا العصر

وهذا الاصلاح المنشود يتلخص فى كلمتين : فتح باب الاجتهاد فى علومنا عامة والعلوم الدينية منها خاصة ، وتأليف كتب جديدة فى هذه العلوم تسرى فيها روح الاجتهاد بدل تلك الكتب الميتة الجامدة ؛ أما ماعدا ذلك من أمور الاصلاح فمن الأمور الكمالية التى ضرنا الاهتمام بها أكثر من هذه الأمور الأساسية

ولست بسبيل الكلام فى هذا الاصلاح فقد قطعت شوطاً من حياتى فى الجهاد فيه ، حتى آل الأمر بنا إلى تلك الطرق الملتوية ، ووجدت فى ذلك غرائب وعجائب صرفتنى عن العناية بذلك الأمر إلى أمور أخرى من العلم والأدب ؛ وقد جاورت فيها أناساً آخرين وجاورونى ، فوجدت علماء الأدب أكرم الناس أخلاقاً ، وأسلمهم طوايا ، وأطهرهم أقلاماً ، ووجدت الخير فيهم مرجواً ، والشر منهم مأموناً ؛ ولست أدرى وقد تركتهم إلى هذا الموضوع الدينى الخطير أأجد أقلاماً مثل أقلامهم ، ونفوساً سمحة مثل نفوسهم ، أم أجد النفوس لا تزال على عهدى بها ، وإن تظاهرت بحب الاصلاح والانتصار له ؟ وقد أكون مخطئاً فى ظنى ، وأرجو من الله أن أكون مخطئاً فيه ، وأن نكون قد بدلنا نفوساً أخرى تبحث مثل هذه الأمور المهمة فى هدوء ، وتعرف الصواب للمصيب فلا تحسده عليه أو تتعامى عنه ، وتحسن الظن بمن يطلب الصواب فيخطئه طريقه ، فتأخذه بالتى هى أحسن ، حتى يعرف خطأه واضحاً فيرجع عنه ، ويشكر للذى دله عليه

وهكذا كان حال سلفنا الصالح رضوان الله عليهم . كان باب الاجتهاد بينهم مفتوحاً على مصراعيه لا يحمل أحد منهم بصبيه ضغينة على أخيه ، ولا يحاول قهره على موافقته فى رأى خالفه فيه ، إلى أن نبتت فتنة الخوارج المعروفة ، ولعبت السياسة بعقول الناس فيها ، فكانوا أول من سن فى الاسلام أخذ المخالف فى الرأى بوسائل القهر ؛ ثم تتابعت الحوادث وأتى عصر بنى العباس فرأوا من الأئمة المجتهدين فى عصرهم انكماشاً عن سلطانهم فأخذوا ذلك عليهم ، وجعلوا يصطنعون الوسائل لايذائهم ، فآذوا فى ذلك أبا حنيفة ومالكا والشافعى وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة الجماعة ، وصاروا ينصرون عليهم خصومهم من المعتزلة ، واستباحوا فى ذلك ما استباحوا من الحجر على حرية الرأى ، وتعذيب المخالف لهم فيه بالسجن والضرب والقتل ، وبلغ ذلك شدته فى مسألة خلق القرآن المعروفة

وكان التعليم من أول الاسلام يتخذ المساجد دوراً له ، فتتولاه الرعية بعيدة عن الحكومة ، كما تتولاه الأمم الآن فى الشعوب الراقية فى أوربا وأمريكا . وينشأ التعليم فى كنفها حراً لا يتأثر بهوى حاكم ، وينشأ رجاله أحراراً لا تلين قناتهم لظالم

وقد أخذ حكام المسلمين فى آخر الدولة العباسية يدخلون فى أمور التعليم ليكون لهم نفوذ عليه ، وسلطان على رجاله ، فأنشأوا له المدارس الخاصة به ، وحبسوا عليها من الأوقاف الكثيرة ما رغب العلماء والمتعلمين فيها ، وجعلهم يتنافسون على أبواب الملوك والحكام من أجلها ، فضاعت كرامة العلم والعلماء ، وخضع أهله لمن بيدهم أمر تلك المدارس والأوقاف

ومن أقدم ما بنى فى الاسلام من المدارس المدرسة البيهقية المنسوبة إلى البيهقى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، والمدرسة السعيدية بنيسابور بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود حين كان واليا بها ، والمدرسة النظامية التى بناها الوزير نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان وابنه ملكشاه ببغداد سنة ٤٥٩ هـ واحتفل بافتتاحها يوم السبت عاشر ذى القعدة من هذه السنة ، وجمع الناس على طبقاتهم ليحضروا دروس الشيخ أبى إسحاق

الشيرازى ، فجاء الشيخ ليحضر فلقيه صبى فى الطريق ، فقال ياشيخ كيف تدرس فى مكان مغصوب ؟ فرجع الشيخ واختفى . فلما يئسوا منه ذكر الدرس بها أبو نصر الصباغ

ولما ملك السلطان صلاح الدين بن أيوب مصر لم يكن بها شىء من المدارس ، فبنى بها المدرسة الناصرية لتعليم المذهب الشافعى سنة ٥٦٦ هـ ثم بنى المدرسة الصلاحية بالقرافة الصغرى سنة ٥٧٢ هـ مجاورة للامام الشافعى رضى الله عنه ، وجعل لناظرها أربعين دينارا فى كل شهر ؛ ورتب له فى كل يوم ستين رطلا من الخبز ، وراويتين من ماء النيل ؛ ثم بنى أخرى مجاورة للمشهد الحسينى ، وجعل دار عباس الوزير العبيدى مدرسة للحنفية

وكان من دواعى إنشاء هذه المدارس تأييد المذاهب التى كان السلاطين يشتدون فى نصرتها ، كما فعل صلاح الدين حين استولى على مصر ، فقد حارب فيها مذهب الشيعة الفاطميين الذين حكموا مصر قبله ، وكانت دروس هذا المذهب تلقى فى الأزهر وغيره من مساجدهم ، فأبطل هذه الدروس ، وأحيا مذهبى الشافعى ومالك وبنى لهما كثيراً من المدارس

وفى هذه المدارس أقفل باب الاجتهاد ، وقبرت المذاهب الفقهية عدا هذه المذاهب الأربعة الباقية ؛ وقد كانت هناك مذاهب كثيرة لأهل السنة والجماعة بقى بعضها إلى القرنين السابع والثامن الهجريين ؛ ومن هذه المذاهب مذهب البصرى والثورى ولم يطل العمل بهما لقلة اتباعهما ؛ ومنها مذهب الأوزاعى ، وقد بطل العمل به بعد القرن الثانى للهجرة ؛ ومنها مذهب أبى ثور ، وقد بطل العمل به بعد القرن الثالث ؛ ومنها مذهب ابن جرير الطبرى ، وقد بطل العمل به بعد القرن الرابع ؛ ومنها مذهب الظاهرى ، وقد طالت مدته وزاحم المذاهب الأربعة حتى جعله المقدسى فى أحسن التقاسيم رابع المذاهب فى زمنه (القرن الرابع) بدل الحنبلى ، وذكر الحنبلية فى أصحاب الحديث ، وعده ابن فرحون فى الديباج الخامس من المذاهب المعمول بها فى زمنه (القرن الثامن) ؛ ثم درس بعد ذلك ولم يبق لأهل السنة والجماعة إلا المذاهب الأربعة . وذكر ابن خلدون أن الظاهرى درس بدروس أئمته ، وإنكار الجمهور على منتحله ، ولم يبق إلا فى الكتب ، وربما يعكف متكلفو انتحاله عليها لأخذ فقههم منها ؛ فلا يحلون بطائل ، ويصيرون إلى إنكار الجمهور عليهم

وهكذا أخذت المذاهب الأربعة تتغلب مع الزمن على غيرها من هذه المذاهب حتى تم لها التغلب عليها فى القرن السابع الهجرى . وأخذ فقهاء هذه المدارس تبعاً لهوى أصحابها من الأمراء يتعصبون لها ، ويفتون بوجوب اتباعها . قال المقريزى فى خططه : « فلما كانت سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ولى بمصر والقاهرة أربعة قضاة ، وهم شافعى وحنفى ومالكى وحنبلى ، فاستمر ذلك من سنة ٦٦٥ هـ حتى لم يبق فى مجموع أمصار الاسلام مذهب يعرف من مذاهب أهل الاسلام سوى هذه المذاهب الأربعة ، وعقيدة الأشعرى ، وعملت لاهلها المدارس والخوانك والزوايا والربط فى سائر ممالك الاسلام ، وعودى من تمذهب بغيرها وأنكر عليه ؛ ولم يول قاض ، ولا قبلت شهادة أحد ، ولا قدم للخطابة والإمامة والتدريس أحد ما لم يكن مقلدا لأحد هذه المذاهب . وأفضى انتهاء هذه الأمصار بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ماعداها ، والعمل على هذا الى اليوم »

وإذا لم يكف هذا الاجمال فى بيان ما أتت به يد السياسة من وسائل القهر والاغراء فى احياء بعض هذه المذاهب وامانة بعضها ، ومحاربة الاجتهاد الى حد القضاء عليه فى تلك المدارس ، فانا نسوق مثلاً من ذلك فى المدرسة المستنصرية التى أمر بانشائها المستنصر بالله العباسى ، وشرع فى ذلك سنة ٦٢٥ هـ وقد تكامل بناؤها سنة ٦٣١ هـ وأنفق عليها أموالاً كثيرة ، واحتفل بافتتاحها فى تلك السنة احتفالاً عظيماً حضره بنفسه ، وحضره نائب الوزارة وسائر الولاة والحجاب والقضاة والمدرسون والفقهاء ومشايخ الربط والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء وجماعة من أعيان التجار الغرباء ، واختير لكل مذهب من المدارس وغيرها اثنان وستون نفساً ، ورتب لها مدرسان ونائبا تدريس ؛ وكان المدرسان محيى الدين محمد بن يحيى بن فضلان الشافعى ، ورشيد الدين عمر بن محمد الفرغانى الحنفى ؛ وكان نائباهما جمال الدين عبد الرحمن بن يوسف بن الجوزى الحنبلى ، وأبا الحسن علياً المغربى ؛ وجعل لها معيدون لكل مذهب أربعة ، وقسمت إلى أرباع ، فجعل ربع القبلة الأيمن للشافعية ، وجعل ربع القبلة الأيسر للحنفية ، وجعل الربع الذى على يمين الداخل للحنابلة ، وجعل الربع الذى على يساره للمالكية . وقد شرط المستنصر فى وقفه عليها أن يكون عدة فقهائها ثمانية وأربعين

ومائتي فقيه ، من كل طائفة اثنان وستون ، بالمشاهرة الوافرة ، والجراية الدارة ، واللحم الراتب ، إلى غير ذلك من وسائل الاغراء التي لم تتح لغير هذه المذاهب . وقد كان قبر الاجتهاد في هذه المدرسة ، وحجر النظر فيها على العلماء بهذا الشكل

في سنة ٦٤٥ هـ أحضر مدرسوها إلى دار الوزير ، فتقدم اليهم ألا يذكروا شيئاً من تصانيفهم ، وألا يلزموا الفقهاء بحفظ شيء منها ، بل يذكروا كلام المشايخ تأدباً معهم ، وتبركا بهم . فأجاب جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي مدرس الحنابلة بالسمع والطاعة . وقال سراج الدين عبد الله الشرمساحي مدرس المالكية : « ليس لأصحابنا تعليقة ، فأما النقط من مسائل الاختلاف فما أرتبه » . وقال شهاب الدين الزنجاني مدرس الشافعية ، وأقضى القضاة عبد الرحمن بن اللمغاني مدرس الحنفية : « إن المشايخ كانوا رجالاً ونحن رجال » فكانا أفضل القوم إجابة . ثم أوصل الوزير أمر ذلك إلى المعتصم بالله ، وكان قد ولي أمر الدولة بعد أبيه المستنصر ، فتقدم اليهم أن يلزموا بذكر كلام المشايخ واحترامهم فأجابوه بالسمع والطاعة . وذهب إباء مدرسي الشافعية والحنفية في الهواء . ولو أنهما استمرا على إبائهما لكان جزاؤهما القتل أو نحوه

ونستطيع بعد هذا أن نحكم بأن منع الاجتهاد لم يتم إلا في عصور الظلم ، وبأن قصر الناس على هذه المذاهب الأربعة حصل بوسائل غير مقبولة من القهر والاغراء . وفي يقيننا أنه لو أتيح لغير هذه المذاهب ما أتيح لها من تلك الأوقاف والرواتب لكان حظها من البقاء مثل حظها ، ولبقيت معروفة مقبولة ممن يجهلها اليوم أو ينكرها

وقد حوولت هذه الوسائل لألزام الناس بهذه المذاهب قبل هذه العصور فلم يرض بهذا المسلمون حتى أصحاب هذه المذاهب . روى أبو نعيم في الحلية عن مالك بن أنس أنه قال : شاورني هارون الرشيد في أن يعلق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه ؛ فقلت لا تفعل ، فان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا في الفروع ، وتفرقوا في البلدان ، وكل مصيب . فقال وفقك الله تعالى يا أبا عبد الله

وروى ابن سعد في الطبقات عن مالك بن أنس قال : لما حج المنصور قال لي قد عزمت على أن آمر بكتبك هذه التي وضعتها فتنسخ ، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة ، وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه إلى غيره ، فقلت يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا ، فان الناس قد سبقت اليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق اليهم ودانوا به ، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم

فنحن إذن في حل من أمر هذه المذاهب التي فرضت علينا فرضا ، وفي حل من ذلك الحظر على الاجتهاد في أحكام ديننا ، لأنه أتى بطريق القهر ، ولم يتم برضا المسلمين وتشاورهم ، وإنما أمر المسلمين كما حكم الله تعالى شورى بينهم

عبد المتعال الصعيدي

وزارة المعارف العمومية

ادارة السجلات والامتحانات

نشرة
للمدارس الثانوية

بشأن ما يتبع في امتحان شهادة الدراسة الثانوية في السنة المكتبية ١٩٣٥ — ١٩٣٦

توجه الوزارة النظر إلى تحديد ما يمتحن فيه طلبة شهادة الدراسة الثانوية هذا العام على حسب الموضح بعد :

يمتحن الطلبة في مقرر السنة الرابعة القديم الذي درس في السنة المكتبية ٩٣٤ — ٩٣٥ ، وفي مقرر السنة الخامسة على حسب المنهج الانتقالي الذي أرسل لمدارس البنين الثانوية بالمنشور رقم ٢ بتاريخ ١٥/٨/١٩٣٥ ولمدارس البنات بالمنشور رقم ١ بتاريخ ٢٩/٨/١٩٣٥ مع مراعاة ما يأتي :

أولا — في الترجمة يكون الامتحان من اللغة الأجنبية الأصلية إلى اللغة العربية فقط

ثانياً — في اللغة الأجنبية الأصلية والاضافية تكون الأسئلة على نمط الأسئلة التي سبق وضعها في امتحان العام الماضي

فالمرجو العلم بذلك واتباعه